

اللغة

والمجتمع الإنساني

للأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح
من علماء الأزهر - القاهرة -

واللغة فعله من لغوت اي تكلمت . واصلا لغة ككرة ، وقلة ، وثبة . كلها لاماتها واوات ، لقولهم كروت بالكرة ، وقلوت بالقللة ، ولان ثبة كانها من مقلوب تاب يشوب .

وقالوا فيها : لغات ، ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغني يلغى اذا هدى قال :

ورب أسراب حجيج كظم

عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى : « واذا مروا باللغو مروا كراما » اي بالباطل ، وفي الحديث « من قال في الجمعة صه فقد لغا » اي تكلم (2)

وقد يصعب على الباحث ، معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة . الا أننا لا نعدو الصواب ، اذا قلنا : انها بدأت عندما تكونت اول جماعة انسانية في هذا الوجود ، ولا نعدو الصواب أيضا ، اذا قلنا : ان الجماعة الانسانية الاولى - ايا كان طابعها - عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة ، الناتجة عن علاقات الافراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الانسان بالبيئة والطبيعة . وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها ، تولد النشاط الانساني في استخدام الصوت ، لتكوين الفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات ، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الاذن . تجسد هذا النشاط الانساني

اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة بنى الإنسان ، لان الله خلق هذا النوع اضعف قوة ، من كثير من انواع الحيوانات الاخرى ، التي تعيش معه على الارض ، ولكن الله عوض الانسان عن قوة الجسم والسلاح ، قوة العقل ، ومنحه الاستعداد للكلام والتفاهم . فدعا بعض افراد الانسان بعضا للتفاهم والتعاون على اتقاء عادية الحيوان ، وعلى جلب المنافع ، وتحصيل المرافق ، واضطره ذلك الى سكنى المدن ، وانشاء المجتمعات ، ولذلك قال فلاسفة الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » أي انه مضطر الى سكنى المدن ، ل يتم فيها تعاونه وقدرته على استغلال ما اعد له في هذه الدنيا من مقومات حياته .

وكانت اللغة هي الاداة التي تكشف لبعض الافراد عما في نفوس الآخرين . وقد كان التفاهم الانساني اول الامر ، بالاشارات التي لايزال بعضها في لغة الجماعات البدائية ، والتي تظهر في الطفل قبل ان يتعلم الكلام ، ثم حصل التفاهم بالاصوات التي تألفت منها الكلمات في اللغات المختلفة (1)

فاللغات اصلا اصوات ، وليست كلمات ، فان الكلمة صوت يرمز الى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ، والصوت هو الاصل .

والصوت يصنعه الهواء ، يخرج من رئة الانسان ، وتقوم الحنجرة ، ويقوم اللسان ، ويقوم الفم ، وحتى الانف ، باعطائه شكلا خاصا ، هو الكلمة المسموعة .

المتميز عن كائنات الطبيعة الأخرى ، في صحبات موسيقية ، تومي بمعان سحرية ، تختلف في دلالتها باختلاف موسيقاها .

بذلك تكون العنصر الأساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده ، فاللغة بظهورها - كمرحلة عليا في مجريات التطور - خارجة خروجاً تلقائياً من صور سبقتها للنشاط الحيواني كان رد فعلها الحتمي ، هو تحويل تلك الصور والضروب التي كان السلوك الجماعي يجيء على غرارها ، يضيف بعداً جديداً إلى أبعاد الخبرة الإنسانية ، ما نطلق عليه إنسانية الوجود ، فالتمبير الرمزي عن الأشياء يحولها من أشياء قائمة بذاتها ، منفصلة عن الوجود الإنساني ، إلى جزء من هذا الوجود ، فمثلاً تسمية الساق الخشبية المنبتقة من الأرض والمنتهمية بأفروع ووريقات خضراء بلفظ « شجرة » هو بمثابة إذابتها في الوجود الإنساني تقع تحت سيطرته وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء - أي إطلاق لفظ لغوي عليه - هو الخطوة الأولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الإنساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن الوجود ، والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي ، تكمن في انبثاق مواضيع من هذا الرمز ، لا تمت للشيء الرموز به أصلاً بصله مباشرة ، وإن كان هذا لا يتم إلا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي ، ومن هنا يتبين الفرق الأساسي بين التعبير الرمزي عن الأشياء والأفعال برسمها والتعبير الحركي - الرقص - الذي من الصعب أن يتولد عنه شيء آخر ، بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الإمكانية .

وليست على هذا الأساس ، البيئة التي يحيا فيها الإنسان ، يعمل ويبحث مادية فقط . بل ثقافية كذلك ، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التي تحملها الألفاظ اللغوية ، في طيها وتوحي بها .

والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث إنما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الأعضاء التي تختص بهذه العلاقات ، على العين والأذن واللسان ، بل من أدواتها كذلك ، تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ، مضافاً إليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة - أذن - في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للإنسان ، مكاناً ذا دلالة

خاصة ، وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة أيضاً فهي في حد ذاتها نظام ثقافي ، وهي :

1 - الأداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى والعادات المكتسبة .

ب - والألفاظ التي تتغفل خلال الصور ومضموناتها في آن واحد معاً ، أعني الأنظمة الثقافية الأخرى ومضموناتها .

ج - وتمتيز بتركيب خاص بها له قابلية التجرد باعتبار اللفظة « صورة » من الصور ، ولهذا التركيب - إذا ما تجرد في صورته - تأثير حاسم من الوجهة التاريخية .

واللغة التي جاءت على هذا الوضع ، هي اللغة بأوسع ما أريد لها من معنى ، فاللغة بهذا المعنى المتوسع ، هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها في متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة أخرى ، فإن الأفكار أو المعاني لا وجود لها إلا في رموز يستحيل فهمها دون الرجوع إليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز ، نوعاً من البقاء الضروري لوجود الأشياء الرموز إليها ، بعد أن كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها (3) .

ومن هذا يتبين أن علاقات العالم الداخلي النفسي والعالم الخارجي ، تتجسم في التعابير المختلفة ، توجد بوجودها ، وتندم باندماجها ، أنها شرط وعلّة لها ، وبما أن الموضوع والذات ، أي المفعول والفاعل ، يلتقيان في الشعور الفردي ليتحققا ، كان لزاماً على الدراسات النفسية أن تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير وأصنافه .

فاللغة فن تقني (لأن لها نماذج وقواعد متفقاً عليها) ولكن حقيقتها تندمج في حقيقة تاريخية ، التاريخ الفكري والنفسي والصناعي والجغرافي للامة أو للامم المتكلمة بهذه اللغة ، ونقصد هنا بالتاريخ الماضي طبعاً ، ولكنه ماض يسترسل من الحاضر مع التأكيد بأن الحاضر لا ينحصر في الحال ، بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالمضارع » أي الحال والمستقبل ، لأن ما يقوم به الإنسان في الحاضر إنما هو إنجاز لما يريد أن يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس مرادفاً للبعيد كما أن الحاضر ليس منحصرًا فيما قد حضر فحاضر ليس وصفاً لحالة ، بل اسم فاعل ، أي أنه الزمن الذي يقع فيه فعل فعلياً .

فالحاضر يختلف عن الماضي ، لان الماضي قد انتهى كحركة مباشرة ، ولم يبق الا في اشارة او نسي ذاكرة . ويخالف ايضا المستقبل لان المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتمص الامال .

فالتكلم يغير اللفظة ولكنه يخضع لاسها ومصطلحاتها ، كي يفهم ، فالكلام أداة للفاهم ، لا غاية في ذاته . ان المتكلم يرمي من وراء الكلام ان يفهم المستمع انه يريد تواعلا .

لكن خلافا ، لما يمكن ان نزنه ان الانسان الاول ، لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وافكار ، ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال ، بل العكس ، لقد فهم وفكر وافهم لانه تحدث ، حيث ان ما راج في خاطره قبل ان يتكلم لم يكن مكيفا في شكل اولي يرمي الى قصد ، واني له ان يقصد الافهام قبل ان يحصل عنده فهم هو نفسه ؟

ان التفكير واللفظة وجهان لواقع واحد . ان الجد الاول للانسانية لم يعبر عما فكر فيه لانه كان يفكر ، بل فكر لانه تكلم ، وهو لم يتحدث الا بعد ان انتهى من الحركة ، فللافعال - أي ما يقابل الاسماء - الاسبقية والمكان الاول ، والافعال آخر ما يضيع من الذاكرة . ان اللعب وهو عمل جماعي من أول الحركات التي يقوم بها الطفل ، فكل لعب في الحقيقة ، ملاعبة ، وأداة اللعب بالنسبة للصبي غالبا ما تكون هو من يلعب معه من اقارانه ، أو من الكبار ، فالاتصال الاول بين الصبي وعالم الاحياء ، هو الثدي ، وعند النظام نلهيه بندي لا لين له ، أو بأشياء جامدة تشبه الثدي ، فاللعب عالم مصطنع بين الواقع واللاواقع ، أي حركات وامزة يتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ويصبح غاية في ذاته ، نعني ان الرمز يتركز في الشعور كأنه هو الواقع ، ويصير الواقع شيئا أجنبيا (4) .

وان أول أداة للتعبير اخترعها الانسان ، هي الآلة مثل الحجرة والعصا وهذه الأدوات ان هي الافعال مجسمة ، فالعقول شيء مشترك بين الانسان والحيوان .

يقلع (الشامبانزي) غصنا من الشجرة ، ليستعمله كما يستعمل الانسان العصا . لكن الفرق هنا ، هو ان القرود يستعمل آلتها في الحالة الحاضرة ، في حين ان الانسان يخلق بينه وبين الآلة صلات يملكها فيقول : هي لي ، هي لك ، هي لنا ، فيذخرها ثم ينقحها ويطورها ، ومن هنا يكسبها معاني جديدة ، وكردد فعل لذلك ، تكسبه هي بدورها كلمات جديدة (أفعالا

وأسماء) فهناك أذن : (ديالكينيك) للتطور الانساني في علاقاته بالادوات ، يؤثر بها ثم فيها ، وهي بدورها تؤثر فيه . فالانسان يتطور بقدر ما تتطور ادوات العمل .

فالانسان يمتاز عن الحيوان في علاقاته بالآلات في كونه يستعملها ، وقد استعملها أمس ، ويستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بعد .

وبمجرد ما أصبحت الآلة مصاحبة للانسان أي متصلة بالتاريخ تكونت حولها عادات جماعية : نعني اعرفا تقنية تتوارثها الاجيال (صنع الآلة وكيفية استعمالها واصلاحها) والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة أو للمبادلة ، أي الآلة أول واسطة بين الانسان والعالم ، بين الانسان والمجتمع . فاللغة لا تنتعش الا في البيئات الغنية بالآلات ، بالأشياء المصنوعة والمكتشفة ، لان كل لغة انما هي ادوات حضارية ، ان الجد الاول للانسان قد استعمل العصا في الصيد ، وقلد صوت الحيوان ، ثم تلفظ بمسميات للعصا وللصيد ، وللصوت وللطير ، فالحياة تدور حول اشباع الحاجيات ، وهذا الاشباع يدفع الى العمل ، والعمل يدفع الى اكتشاف الآلات أو الى صنعها ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول اعمال مشتركة ، فتتجلى مختلف التعابير من علامات واشارات ولفات ورموز .

من هذا التحليل نصل الى اصل المعرفة ، واصل الاحداث التاريخية ، واصل المجتمع الانساني ، وبالتالي هنا يبدأ التفكير الفلسفي .

ان الفلسفة بطبيعة وظيفتها ، تشتغل بمعرفة الانسان والعالم وعلاقاتها ، فهي تبحث فيهما ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامي .

والانسان هو الحيوان الذي يتكلم ، أي يصنع العالم بالالفاظ ، فتصبح كل لفظة اما مفتاحا لفهم ، أو أداة مواصلة واتجاه ، واما تحديدا لسلوك فردي ، أو جماعي ، فالكلمات كالأوراق النقدية والأسلحة أو الخاتم السحري في يد الانسان ، يكفيه ان ينطق ليحدث شيئا في شعوره ، ورد فعل في شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعوري ، ينتج صدى يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا ، وحيانا اصلاحا . واذا لم يتسبب عنها شيء محسوس عند المتكلم ، ربما حصل ذلك عند

المستمعين ، او عند متكلم آخر ، مرة اخرى ، فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ بقيمته التداولية سواء انتقل الى بائع والى مشتر ، او لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث في الكلمات من حيث تركيبها المادي ، ومدلولاتها المحسوسة ، وآثارها النفسانية ، يلتقي في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الانسان ، وحول المعرفة . ومن هنا كان التأمل في اللغة فلسفة وعلم ، وبما ان اللغة حركات وعلامات واشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث واداة له ، اذ انها تأمل بتعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، انه (بين) : بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات واحساسات ، وبين ابرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين (الانا) والآخرين ، بين الانسان والعالم .

اللغة هي الواسطة العظمى والصفوى في الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير (الانا) ونداء للآخرين ، اي دعوة ودعاء ، فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام امام نفسه وامام المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسؤولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعني ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، الى مستوى العناصر « الانطولوجية » ربما استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلكة الفلسفية في الكلمة والمفهوم والتعبير ، نعود الى جوانب هامة من اللغة فنقول : اذا اردنا ان نعرف اهداف اللغة المكتوبة والتكلم بها والتي قال عنها ابن جني في الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : انها اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وجدنا انها :

1 - هي اداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الانسان كوجود مستقل ، ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين :

احدهما الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمرحلة لهذين الهدافين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الانساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 - انها تجعل للمعارف والافكار البشرية ، قيمة اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على افكاره وتجاريه .

2 - وانها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل .

3 - وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 - وانها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأتى هذا التعاون الفكري ، الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين افراد المجتمع ، والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم الى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الاولية (7) .

فاللغة اهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية نجد ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمباديء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع في كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي الخصب بأدق المعاني ، ناشئا تلقائيا من المناشئ العضوية الاولى ، وفي كونها في الوقت نفسه - من جهة اخرى - تضطر الفرد الواحد من افراد الناس ان يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ، وأن ينظر الى الامور ، وأن يجري عليها البحث من زاوية

بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن أن يكون خبازا او نساجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في اموره على غيره من اصحاب هذه المهن ، وأن يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياء اجتماعية ، فان اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، أو دين بلا لغة ، أو فكرة بدونها ، أو احساس لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، أو ارادة تقوم بغيرها ، أو عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة في كل أولئك ، هي الحياة الاجتماعية ، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تمكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة ، وشارة للواقع .

قال الامام محمد عبده : اللغة مجلس للفكر وترجمان له (11) .

وجاء عن محمد المبارك : ان اللغة سبيلنا الى اكتشاف جوانب الامة التي تتكلمها ، واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (12) .

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء أو اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الوجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه أيضا ، أنها تهم أول ما تهم شخصا آخر - المستمع - أو اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

وإذا اردنا أن نعرف اللغة ، تعريفا جامعا مانعا - كما يقول علماء المنطق والاصول - على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك في منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع ، فسنجد أننا انتهينا الى نص لا يمكن أن يكون تعريفا أبدا ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوتية ، الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لا بد أن يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لمدة أمور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك أن يلجأ العلماء في تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء في بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بأن اللغة وسيلة لاختفاء الافكار ، لا لايضاحها . وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه أحيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلا ، وأدركها ادراكا أعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . وصالح لان يكيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر . والحقيقة أن اللغة ، في عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن أن تلخص في أمرين :

- 1 - أمر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .
- 2 - أمر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياء اجتماعية . فاما

ومما هو جدير بالذكر ان انظار العلماء اختلفت
- في تعريف جامع مانع للغة - طبقا للمفاهيم التي
يبرسونها .

ولذلك نرى فريقا يعرفها على اساس عقلي او
نفسي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : ان
الغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الافكار
ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة
العالم الامريكي « ساير » . وينظر علماء الفلسفة
والمنطق الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار
فيقول الاستاذ جفوتز في كتابه « مبادئ دروس
المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

1 - كونها وسيلة للتوصيل . 2 - كونها مساعدا
آليا للتفكير . 3 - كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفتها في
المجتمع ، فيعرفها العالم اللغوي الامريكي (ادجار
ستير تفت) بانها : نظام من رموز ملفوظة عرفية
بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية
العينية .

ومن التامل في هذه المجموعة من آراء العلماء
يتبين ان تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية
واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الانساني
لانها لا تتفق عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصيلها الى
الاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفة
اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر ، حال اشتغالهم
بأمور فكرية .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة أداة لنقل الافكار ، وانما
هي وسيلة للتعاون والترابط بين افراد المجتمع ، فاننا
نتبين كثيرا من الناس يتكلمون في موضوعات ، وليس
يعنيهم نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصد
من حديثهم الترفيه والتسليّة ، او النظر في أمور
تخصهم في ادارة شؤونهم .

وبذلك يبدو ان رأي علماء المجتمع بتعريفها
تعريفا يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير
ما تعرف به اللغة ، واذا كان ذلك صحيحا فينبغي ان
تشير الى تعريف الاقدمين للغة : وهو انها اصوات
يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (13) وهذا التعريف
للحرجاني وابن جنبي . ومن الملاحظ ان هذا التعريف
قد تمشى مع وجهة علماء المجتمع تمشيا دقيقا لان
الاصوات ما هي الا الرموز الصوتية التي تنبئ عن
مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان في

حياته سواء كان احتياجا عاديا كشئون الناس في
حياتهم المتشعبة مع احتياجاتهم في كل اوقاتهم ، ام
كان احتياجا ضروريا كاحتياج الباحث للتعبير عن
الافكار القائمة بنفسه لتوصيلها الى اذهان الدارسين .

وان اللغة ذات اثر قوي في حياة المجتمع الانساني ،
لانها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريق
لارتباط افراد المجتمع بعضهم ببعض ، والموصل
للافكار القائمة بالاذهان ، والمهيئة لرقى الامم في شتى
نواحيها (14) .

وقال (جون لوتز) : الوجود البشري ملتحم
باللغة . فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك
الناس في كل لحظة ، وترافق المجتمعات في اطوارها
التاريخية المتلاحقة ، فيصحبها ناموس التغير الحتمي
الذي يجعها أداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز
والايحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ،
ومعيارا دقيقا لرقياها او انحطاطها في ميدان الثقافة
والعلم والحضارة .

واللغة لذلك لا تعرف التحجر ، وهي قدرة
على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفتأ تتغير شكلا
ومبنى ، تتغير حروفها واصواتها او صيغتها وبنائها
او من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الى
آخر ، او تضيف الى معناها معنى آخر جديدا دون
ان تترك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقوام التي
تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهما
سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل
لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائل
المتبعة لتنمية اللغات واغناء ترانها التعبيري .

الامة البدائية حتما لفتها بدائية وغير مصقولة
ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدي
المعاني الحسية والمجردة ، فهي لذلك تقتصر على
التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة
وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نموا ،
تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل
سمة لفظا مناسباً .

ان اللغة تمنح الانسان بالاضافة الى ورائته
البيولوجية خطا آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة ،
وتراكم المعرفة ، أمرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث للغة إمكانات ووسائل
متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية في صورها

ويمتاز لسان الانسان بقدرته على التعبير عن الاحاسيس والمشاعر تعبيراً ذا قوة ودلالة .

والفكر الانساني له الاحمية العظيمة في سبيل تقدم اللغة ونموها وازدهارها ، فاللغة هي الصق الاشياء بالانسان واعسرها انفكاكا عنه ، وهي الرابطة التي تربط بين الانسان ، ومعاني الحياة والكون والمجتمع .

جاء في الابنيشد (18) : ان لم يكن النطق موجودا لم نهند سبيلا الى معرفة الحق ولا الباطل ، ولا الصدق ولا الكذب ، ولا الفرح ولا السرور ، والفضل لفهمنا لمعنى هذه المظاهر ، وادراك مفهوم هذه المشاعر ، يرجع الى النطق ، ولذلك حيق لنا ان تبصر في النطق وتعمق فيه (19) .

وقال العالم الهندي همايون كبير : لعمري ان ذلك - يشير الى النطق - من الآلاء التي خصص الله بها الانسان ، دون سائر خلقه ، من ان يقدر على تحليل الموقف وتفكيكه فاقباسبه منه النتائج المتعة ثم تطبيقها في ظروف اخرى ملائمة حيث دعت الحاجة الى ذلك . ولا شك ان معظم الفضل في ذلك لعائد الى لسان الانسان . وان التقدم في اللغة يدل على مدى التقدم الذي احرزته المجتمع أو أفرادها . ونخرج من كل هذا الى ان اساس اللغة ينبعث عن التأثيرات العاطفية وتقدمها ورفيها ويرد الى التفسح في الفكر ، وتغلب البشر العلمي على العالم ، الا انها قد تتسامى فتجاوز حدود العواطف والفكر كليهما ، حيث انها تتشبه رباطا يربطهما ، فترتد وسيطا ومحيطا معا ، وهي اذن - لاشك - اوسع نطاقا وافصح مجالا ، فان الكل في مجموعه اوسع واكبر من اجزائه (20) .

فاللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع - أي مجتمع - فوحدة الفايات والمباديء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه ، من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة .

وعلماء اللغات : صنفوا اللغات وبوبوها وحللوها ، فوجدوا بينها اشباها ، استطاعوا بناء عليها ان يصنفوها ثلاثة اصناف على قدر الامكان ، وهي صنوف ليست متميزة ، بعضها عن بعض كل التمييز ، ولا متفاصلة كل التفاصيل .

النظرية والتطبيقية ، كما اتاح للالفاظ المعنوية المجردة انطلاقات جديدة مالت بها نحو وضوح اكثر ، وتخصيص ادق ، واصبحت الكلمات بفضل تقدم الآداب والفنون غنية بالايحاءات التي تعمقت اغوار النفس البشرية حتى صار عدد من الفاظ اللغة عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن ادق المعاني المجردة واعمقها (15) .

وقال الدكتور عثمان امين : وشواهد الماضي وتجارب الحاضر في الشرق والغرب تثبت في وضوح ان اللغة على الاطلاق هي اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين اهلها ، حتى لقد ذهب العالم اللغوي (ادوارد سايسر) الى ان اللغة هي على الارجح اعظم قوة من القوى التي تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا الراي امران : الاول ان اتصال الناس بعضهم ببعض في المجتمع البشري لا يتيسر حصوله بدون اللغة ، والامر الثاني ان وجود لغة مشتركة بين افراد قوم او امة من شأنه ان يكون هو نفسه رمزا ثابتا فريدا للتضامن بين الافراد المتكلمين بها (16) .

وقال الفيلسوف (فشته) : ان اللغة تلازم الفرد في حياته ، وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخص رغباته وخطراته . انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين . انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الازهان (17) .

ولنتعمق في مفهوم اللغة ، فاذا هي اهم واعز ما ملكته النفس البشرية من حيث جريانها في عروق الانسان مجرى الدم ، حتى ان كل تمد حيالها يعتبر تعديا حيال الشخصية الانسانية ، وهناك من الفلاسفة علماء اجلاء حاولوا تفسير اللغة باصطلاحات فلسفية دقيقة .

فمن قائل : انها ليست الا مجموعة اختلقها الفكر البشري ، وامكن تعديلها حسب المباديء الموضوعية من قبل .

وقد بذلت جهود جبارة في سبيل ابداع لغات مصطنعة ، الا انها باءت بالفشل كما شهد بذلك تاريخ الانسانية .

وكثير من علماء اللغة يردون نشأة اللغة وازدهارها الى العواطف الانسانية ، وهذا هو الاقرب الى الصواب ، لان اول مدرسة يربي فيها الطفل هي مدرسة الامومة ، وفيها يرضع الطفل من امه اللغة كما يمتص خصائصها الذاتية تماما بتمام .

1 - الصنف الاول : اللغات العازلة وهي لغات فيها الكلمة الواحدة غير متغيرة لا تشتق منها كلمات .
 انها اسم ، وفعل ، وصفة ، وظرف في آن واحد ، واكثر هذه اللغات كلماتها ذات مقطع واحد ، واكثرها عندها للكلمة الواحدة اكثر من صوت واحد ، تنطقها نغمة عالية ، او تنطقها نغمة منخفضة ، او تنطقها متقاصرة ، ولكل من هذه الانعام للكلمة الواحدة معنى بذاته .

وتتعدد الانعام وتختلف ، فاللغة الصينية الكنتونية بها ست نغمات ، وكذا السيامية ، اما لغة (برما) فلها نغمتان .

ومن اللغات العازلة Isolating اللغات الصينية التبتية .

ومن اللغات العازلة كثير من لغات افريقيا وهي تبلغ ما بين خمسمائة الى سبعمائة لغة .

ومن اللغات الهندية الاوربية ، وهي غير عازلة ، لغات مالت الى هذا المزاج العازل بعض الشيء لاسيما الانجليزية مثال ذلك لفظ Light انه اسم وفعل وصفة . النور او ينير او منير ، ويفرق بين المعاني الثلاث موضع اللفظ من الجملة ، اي السياق .

2 - الصنف الثاني : اللغات اللاصقة وهي التي تؤلف الكلمات فيها باللصق فيتغير معناها ويتبدل .

واللصق يكون باضافة مقطعين بعضا الى بعض فتكون كلمة لها معنى جديد ، او قد تصنع الكلمة من اكثر من مقطعين .

وهذا الصنف اللاصق Agglutinative من اللغات هو اكثر الصنوف الثلاثة في اللغات عددا ، وهي يتضمن اللغة السومرية القديمة ، ولغة اوردال والقوقاز ، واللغات الدرافيدية واليابانية والكورية ، ولغات المحيط الهاديء ، واللغات الافريقية ، واللغات الوطنية لمواطني أمريكا الاصليين .

3 - الصنف الثالث : اللغات المتصرفة ، وهي اللغات التي تدخل كلماتها التصريف ، فالكلمة يتغير بناؤها ، فتدل على معنى جديد ، كتب ، يكتب ، كاتب ، مكتوب ، كتاب ، وما الى ذلك .

ويدخل في هذا الصنف اللغات الهندية الاوربية ، وكذا اللغات السامية ومنها اللغة العربية وكذا الحامية .

ويلاحظ ان بعضا من هذه اللغات المتصرفة Infectional ما يضيف الى الكلمة مقطعا تصدر

به الكلمة فيتغير معناها Préfixe اي سابقة ، او مقطعا تذييل به الكلمة فيتغير معناها Suffixe اي لاحقة او كاسحة ، وهذا من صفة اللغات اللاصقة (لا المتصرفة) ومعنى هذا ان اللغات قد لا تكون لاصقة خالصة او متصرفة خالصة .

ومثال اللغات المتصرفة التي مالت الى اللصق ، اللغة الانجليزية فنقول Hope ومعناها « الرجاء » ، ونقول Hopeful ومعناها مليء بالرجاء ، ونقول Hopeless ومعناها « لا رجاء فيه » ، ونقول Sense ومعناها « معنى » ونقول Non sense ومعناها « لا معنى له » وهلم جرا .

وإذا اردنا ان نصرف اصول اللغات ، وهل هي من اصل واحد ، ام من اصول متعددة ؟

وجدنا ذلك في منتهى الصعوبة ، فالعالم لم يكشف للآن اصول اللغات الاولى ، ولم يعرف اي الاصول - من اللغات التي توصل اليها - اصل ، الا انه مما لا يسوغ انكاره ان العلم لم يعرف الكلمة الاخيرة وهو كل يوم يأتي بجديد ، ولعله يأتي بجديد يوصل الى قديم ، ممتدة جذوره في الماضي السحيق .

ولغات العالم التي هي من اصول غير معروفة نذكرها فيما يلي :

- 1 - السامية وفروعها وهي : العربية والحبشية والحامية والبرانية .
- 2 - الملاي والبولينز .
- 3 - الدرافيدية .
- 4 - البننتو .
- 5 - الاوربية الهندية وهي تتفرع الى :

أ - الايرانية الهندية وهي : الافغانية ، الاردو ، الهندستانية ، البنغالية ، الكردية ، السيلانية ، الفارسية ، السنسكريت .

ب - السلتية ، وهي : الويلزية ، الارلندية ، البريتونية .

ج - الالبانية .

د - الجرمانية التوتونية ، وهي : الدنمركية ، الانجليزية ، الالمانية ، يدسن « اي الاسرائيلية الالمانية » ، السويدية ، الايسلندية ، النرويجية .

هـ - البلطيك ، وهي : اللوانية ، الليتية .

و - السلافية ، وهي : البولندية ، الروسية ، البلغارية ، التشيكية ، السلوفاك ، السلوفين .

عائلات لغات الارض المختلفة ، وما تفرع منها ، والفرع الواحد يحمل لغات متشابهات .

ان جذورا نشأت منها اللغات ، لكن التاريخ طواها وهي اليوم تترقد في أعماق يعجز الانسان عن استشفافها ، وليس للانسان إلا الحاضر من هذه اللغات ، وهذه اللغات الحاضرة انما هي أنسال تلك اللغات البعيدة الغابرة .

والولد كثيرا ما يحمل من اجداده ، سمات تدل عليهم مهما طال الزمن . بل كل الكائنات الحية ، تحمل الخصائص الذاتية لأبائها تبعا لقانون الوراثة ، مع موافقة قانون التطور العام .

كذلك اللغات تطورت مع الزمن تبعا للقانون العام ، الا ان الوراثة تدل على الاصل أو ترشد اليه ، أو تحتفظ بعناصر أصيلة من الاصول الاولى .

ز - الارمنية .

ح - ا - اللاتينية ، ب - الإيطالية الرومانسية ، وهي : الرومانية ، البرتغالية ، الإسبانية ، الفرنسية ، الطليانية .

ط - اليونانية .

هذه هي شجرة اللغات الاوروبية الهندية .

6 - اليابان ، كوريا .

7 - الاورال وما اليها .

8 - منغوليا .

9 - الصين والتبت (الهند الصينية) وهي : الصينية ، تيلاندية ، برماوية ، وما اليها (21) تلك اصول لغات العالم ، وهي تعطي فكرة عامة عن

مراجع البحث

- 1 - مجلة « المعرفة » السنة الاولى ج 3 ص 11 مايو 1960 المملكة السعودية .
- 2 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 31 - 32 ط الهلال بالفجالة (مصر) 1331 هـ
- 3 - مجلة « اللسان العربي » العدد 3 ص 54 المغرب - الرباط 1385 هـ
- 4 - مجلة « دعوة الحق » العدد 5 السنة السادسة 1382 هـ المغرب
- 5 - نفس المصدر السابق ص 29 - 40
- 6 - مجلة (اللسان العربي) العدد 3 ص 55 الرباط - المغرب 1385 هـ
- 7 - كتاب (اللغة العربية) لعبد العزيز عبد المجيد ج 1 ص 19 - 20 القاهرة 1961 م
- 8 - مجلة (اللسان العربي) العدد 3 ص 55 الرباط 1385 هـ
- 9 - مجلة (المجلة) العدد 114 يونيه 1966 القاهرة
- 10 - مجلة (المجلة) العدد 114 مقال الدكتور تمام حسان - القاهرة
- 11 - مجلة (المنار) للسيد رشيد رضا المجلد 3 ص 303 - القاهرة
- 12 - مجلة (منبر الاسلام) مقال عبقرية اللغة يوليو 1961 م - القاهرة
- 13 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 21 ط الهلال 1331 هـ القاهرة وكتاب التعريفات للجرجاني مادة « لغة » .
- 14 - كتاب (اللهجات العربية) لابراهيم نجا مطبعة السعادة بمصر 1965 م
- 15 - مجلة (اللسان العربي) ع الاول ص 28 المغرب 1381 هـ
- 16 - كتاب (فلسفة اللغة العربية) للدكتور عثمان أمين ص 16 - 17 - القاهرة ومحاضرات الموسم الثقافي لجامعة الازهر 1962 م
- 17 - مجموعة (تراث الانسانية) المجلد 2 العدد 3 سنة 1964 م - القاهرة
- 18 - الابنشد : مجموعة كتب دينية هندوسية - الهند
- 19 - مجلة (ثقافة الهند) المجلد 11 بحث (انيرودها بهاري سرن) - الهند
- 20 - مجلة (ثقافة الهند) العدد 2 المجلد 11 مقال البروفيسور (همايون كير) - الهند
- 21 - مجلة (العربي) العدد 98 يناير 1967 - الكويت